ثقافتنا العربية المعاصرة أمام الاتهام

بقلم عدنان ابراهيم

من الطبيعي ان يثار من جديد موضوع ثقافتنا المعاصرة ، بعدما اثيرت قضايانا القومية والثورية والسياسية ، وسط طفرة التوتر والانفعال الحاد التي نحياها منذ عام .

ومن الطبيعي ان تمتد اصابعنا التي تحترق ، فتشير بغضب حينا ، وتتهم حينا وتتمادى في الاتهام غالبا ، ثم تمتد اصابعنا ، تعود للامتداد ، قصد ابطال الاتهام ، فاذا بها تفرق في نفي كل التهم ، ثم تفرق في اظهار الحسنات او تجسيمها او اختراعها ، وعند اللزوم ، تنثر المساحيق وتدعونا للتأمل او للغزل !

ومن الطبيعي ، ونحن نعيش عنف المعركة ، ونحيا اعمق ازماتنا الكيانية ، ان نلجأ للكلمات العنيفة الجارحة ، فنغرف منها ، ثم نقذف بها الاشياء والاشخاص والافكار ، نرشق بها الآخرين ، ونرشق انفسنا قصد الايقاظ عن طريق الوخز والتقريع ، وهذا ما اختاره شاعرنا نزار قباني ، ومن قبله شاعرنا الرصافي والعديد من اصوات فكرنا ومن قادته ..

وهذا ما أراده الاستاذ محيي الدين اسماعيل ، مع هذا الفارق ، ان نزار ، وهو الشاعر ، قد تعرض او حاول التعرض لحياتنا ، بشكلها العام الشامل ، من خلال كلمات قليلة ونزقة ومبعثرة او منثورة ، ولكنها محاولة شاملة ، بينما اختار الاستاذ اسماعيل الكلام عن الثقافة تاركا العناصر الاخرى !

ومن الطبيعي ، خلال ايام الطفرة العاطفية الانفعالية ، ونتيجة الصدمة الشديدة ، ذات التأثير الكثيف ، ان نلجأ للجريان وراء الاحكام المطلقة ، بعيدا عن حدود العقلانية ، يعني بعيدا عن روح المسؤولية ، اذ من الظلم أن نطلب من مثقفينا البقاء تحت راية العقلانية ، والاحتفاظ بالبرودة العقلية ، والمنطق الجدلي التحليلي وسط احداث تبدو للوهلة الاولى غير منطقية ونابية عن تطور الاشياء المنطقي.

فالمثقف انسان تدفعه انسانيته للمشاركة في آلام وافراح انسانية ، وهو مواطن يمارس مواطنيته مع الآخرين ، انه يتحسس انتصارات ونكسات وطنه ، ويتنادى مع الآخرين لرد الحيف ودفع العاديات عن أمته وعن الانسانية .

صحيح ان من واجب المثقف الوقوف في طليعة شعبه ، ومن واجب النخبة المثقفة التسلح بالعقلانية ، واستعمال العقل الواعي ، كوسيلة لسبر اغوار الماضي ، واستشراف ابعاد الآتي ، مع توضيح معالم الطريق المؤدية اليه .

لكن التطلع نحو المستقبل لايعني الانقطاع عن الحاضر وعن قواه وامكانياته ومشاكله ، كما ان الاخلاص للعقلانية لا يعني الانعزال عن الجماهير واجتناب المواقف والمعارك الحية ، تحت حجة البحث عن العمق او حاجة الصعود نحو الحقيقة الخالدة .

لقد مضى زمن، كان فيه المثقف وخاصة الفيلسوف، يمضي عمره راكضا خلف الحقيقة الصاعدة نحو السماء او الهابطة من المكان الارفع ، والتي تحسن ابدا لمغادرة الجسد الفاني والارض الزائلة .

ليس المثقف الطليعي انسانا حالما يحيا زمانه مع الرؤيا ، وليست الطليعة المثقفة ، فورة عواطف او فيض رؤى تلهث وراء المدينة الفاضلة او تحلق فوق الغد السعيد .

الطليعة المثقفة قوة انسانية حية ، تؤثر بالاحداث وتتأثر بها ، انها قوة فاعلة هادفة وفي الوقت نفسه تبقى قوة منفعلة وخاضعة لفعل العوامل والعناصر الحضارية الاخرى ، انها تتفاعل دائما مع المجتمع ، ضمن حدود الزمان والمكان ، قصد الارتقاء به ومعه نحو حالة جديدة ، اسعد وافضل واجمل ، وقصد تخطي اللحظة الحاضرة نحو اللحظة الآتية ومن ثم نحو اللحظة التي تليها وهكذا دواليك ...

يقولون ان الطليعة المثقفة ، قوة سباقة ومبدعة وكاشفة ، انها كما نردد غالبا ، منارة العصور الآتية .. هذا صحيح ، لكن سبق الطليعة المثقفة ، مثل ابداعها وقدرتها على الكشف ، لا يأتي عن طريق الوحي او الفيض او الحدس .

وحده الشعر ، مثل الدين والفلسفة الميتافيزيقية ، يحاول غالبا تخطي الحاضر عن طريق الرؤيا ، يعني انه يحاول اعادة الاتصال ما بين الانسان والملأ الاعلى بواسطة ايحاء ، ومن هنا كانت أهمية الرمز ، اسطورة وسواها .. التي لا تخضع للمناخات الانسانية ، ولا تنسجم مع المقاييس النسبية .

ما خلا ذلك ، لا يرى المثقف المستقبل بل يستشرفه، يتنبأ به ، وهذا يعني ، انه يستطيع تحديد نقاط فارقة واساسية على دروب المستقبل العامة ، وذلك بالقياس الى معرفة نقاط الحاضر العامة ودروبه .

ان المستقبل عبارة عن امكانية من مجموع امكانيات تكمن في الحاضر ، وتبعا لسعة المعرفة ، وعمق الوعي ، مع غزارة الجهد المستمر والمجدي ، تتناسب شدة التنبؤ لدى المثقف ، واستطاعته توضيح معالم الغد القريب ، وبصورة اقل وضوحا واقل دقة معالم الغد البعيد : المستقبل .

يذخر التأريخ بالامثلة ، من سقراط حتى ماركس ، مرورا بأفلاطون وأرسطو ، وديكارت ، وهيجل ، ومن ابن سينا وابن رشد والبيروني حتى ابن خلدون ، ومن كونفوشيوس حتى ماوتسي تونج وغيرهم .

لقد تكلم هؤلاء عن الانسان ، وطرحوا بحدة مشاكله وازماته ، وبحثوا بعمق ووعي عن اسباب محنه وعن وسائل اسعاده ، كما انهم ساهموا في سبر الاوضاع الحضارية ، والتعرف على النوازع البشرية والمحرك التأريخي ، عن طريق التعرف على العلاقات والتفاعلات الاجتماعية ، واستطاع هؤلاء ، استخلاص بعض القواعد الاجتماعية التي غدت منطلقات للعلوم الانسانية والدراسات المتجددة . .

من ينكر اليوم اهمية المنطق الارسطي ، او الجدل الهيجلي ، او الدورة الحضارية الخلدونية او المادية التاريخية الماركسية ؟

لقد صار هؤلاء جزءا من التراث الانساني لانهم اختاروا التفاعل مع الحياة الانسانية وقواها الحية ، واختاروا الحضور والمثول على مسرح الاحداث . وقد دفعهم البحث عن خلاص الانسان للبحث عن اشكال المستقبل واعطاء ملامحه ، وقد ذهب بعض المفكرين الى حد التنبؤ بأشياء مادية محددة : فقد تنبأ جوته بشق قناة السويس وتنبأ رينمان بالحروب التي يمكن حدوثها بسبب ذلك الممر المائي الهام . .

لقد جاءت تلك التنبؤات نتيجة لادراك الحاضر ومعطياته من خلال منظورات التقدم الانساني .

لكننا ونحن نتكلم عن منظورات المستقبل ، وعن استشراف المثقف له ، وارتباطه احيانا به ، لا يمكن اغفال امكانية الخطأ ، خاصة عندما يحاول المثقف تحديد المستقبل وهندسته بدقة يصعب ضبطها في العلوم الانسانية .

لقد نجح ماركس في تحليل النظام الراسمالي والكشف عن امراضه القاتلة ، ونجح بكشفه عن المتناقضات التي يقوم عليها ويتشكل منها ذلك النظام ، والتي تقود عاجلا او آجلا نحو انفجاره ، ونجح نسبيا حين ربط بين التقدم الاشتراكي والتقدم العلمي والتقني .

لكنه اخطأ عندما اراد التحديد المطلق ، تحديد البلد الراسمالي حيث ستنطلق الثورة الشيوعية ، وتحديد المرحلة الزمنية التي تنطلق خلالها الثورة .

تنبأ ماركس باندلاع الثورة وانتصارها في اوروبا الغربية الصناعية ـ وخاصة بريطانيا ـ قبل نهاية القرن الماضي ، لكننا رأيناها تندلع في روسيا القيصرية السلافية ذات التركيب الاجتماعي الاقطاعي والصناعة المتوسطة . .

وخلال الربع الاول من القرن العشرين ، بينما اخفقت في فرنسا ١٨٧١ واخفقت في المانيا بعد الحرب العالمية الاولى ، واليوم ، بعد نصف قرن على ثورة اكتوبر ، انتصرت خلاله القوى الاشتراكية في بلدان اوروبا الشرقية وبعض بلدان آسيا الزراعية المتخلفة ، بينما اخفقت في اوروبا الغربية ذات التركيب الاجتماعي البورجوازي والصناعة المتفوقة ، وتحولت احزابها الاشتراكية الى نوع من الاحزاب العمالية ، ذات الاهداف الديمقراطية والاصلاحية . . .

هذا لا يعني نفي العقيدة الماركسية ، كما انه لا يعني تعارض منطلقاتها النظرية مع التطور الواقعي للاشياء ، لكنه يدلنا على صعوبة ، بل استحالة الجزم والتقرير في مجال العلوم الانسانية .

ومن هنا تأتي خطورة الاغراق في البحث عن الوان المستقبل البعيد ، ذلك البحث الطويل الذي يصير ضربا من الطوبائية او ضربا من النظرية المجردة ، حين يبتعد كثيرا عن الحاضر ومشاكله ، وعن الانسان والمواقف التي يوجد فيها والازمات الراهنة التي يتعرض لها ويقاسي منها .

ان من حق المثقف العربي ، ومن واجبه الجري وراء المستقبل القريب ، واستشرافه مع استنطاق تعابيره ، ومحاولة توضيح سماته المميزة ، لكن ما نخشاه هو خشوع المثقف امام مستقبلنا البعيد والضبابي ، وتأمله

في الاسواق

قصة الحرب القذرة . . .

في فييتنام !

اقراها في رواية الروائي الاسترالي الشهير

موريست وست

السفير

كما يقصها سفير اميركي عين في سايغون ، فعاش مؤامرات المخابرات السرية الاميركية مع عدد من الجنرالات المتآمرين ، وخرج بمأساة شخصية تجسدت في صراع بين الاخلاق والانتهازية السياسية . . .

ترجمها : نزيه الحكيم

منشورات دار الآداب

السكوني الطويل للوحة المفرحة المشرقة ..

ان هذا النوع من الاحلام والانتصارات (المستقبلية) يذكرنا بالايام والامجاد الماضية ، كلاهما ضرب من الهرب والانهزام .

اننا نريد من مثقفنا العربي ، ومن ثقافتنا العربية ، أن يعلنا عن حضورهما على مسرح الاحداث ، خلال الثلث الثالث للقرن العشرين .

لقد عاد العرب منذ قرن تقريبا للفعل والتفاعل مع الاحداث التاريخية ، وهذا يعني عودتهم للمشاركة في معركة الانسان مع مصيره ، التي تعني معركته مع الطبيعة ، قصد السيطرة عليها ، ومع القوى التي تعوق هذه السيطرة ، قصد التغلب عليها وازالتها من الطريق.

اننا نعرف اليوم ان هذه القوى قد جاءت الينا من الخارج ، على شكل غزو استعماري اجنبي وجب علينا صده ومحاربته ورفضه مع الدفاع عن شخصيتنا المهددة، لكننا نعرف ايضا ، ان هذه القوى كانت وما زالت موجودة فينا ، متخذة شكل التخلف الذي نحسه في كل جوانب حياتنا المتعددة ، والذي نعاني منه على صعيد علاقاتنا الانسانية والطبيعية ، والذي نعيه حينا فنحاربه ونحد من هوله ثم ننساه احيانا فيرجع اكثر قوة واشد خطرا على سلامة الآمال الكبيرة ، وتهديدا التحقيقات الايجابية.

لقد استجابت ثقافتنا العربية المعاصرة ، نسبيا ، لمتطلبات المرحلة القلقة والخطيرة التي عاشها المجتمع العربي ، فانصبت جهود المثقفين العرب وتركزت حول حماية الذات والوجود المهددين ، كما توجهت انظار واهداف ثقافتنا نحو عملية البعث والاحياء ، ومن الظلم وعدم الانصاف نسيان الجهود التي بذلت في ذلك الميدان ، او الاستخفاف بالمسؤوليات التي حملها آباء النهضة .

لكن المرحلة التي نحياها اليوم ، والطور الحضاري الذي نعانيه ونحمل اعباءه ، يختلفان عما عاشه الآباء : لقد ازدادت المرحلة وضوحا ، واشتدت دعوة الحضارة للسرعة والتسارع ، كما اننا بدانا بالهبوط من احكامنا المطلقة ، ومن احلامنا الغيبية نحو الاحكام النسبية والآمال المحدودة المعالم .

بدانا نكتشف استحالة الحفاظ على سيادتنا السياسية من غير العمل على تقوية اقتصادنا الوطني ، وبدانا نعرف عقم الاستقلال السياسي (الشكلي) بعيدا عن قاعدة اقتصادية نامية ومخططة ومتجددة ، كما اننا بدانا نعرف عقم الدعوة للحرية السياسية بعيدا عن الحرية الاقتصادية . واهم من كل هذا ، بدانا نعي عقم نقل الافكار والشعارات الغريبة من غير اقلمتها وخلق المناخات الملائمة لغرسها ، وبالاحرى ، ضرورة البحث عن الاغراس الملائمة لمناخاتنا . ولماذا نخشى الكلمات ؟ لقد بدانا نعي ضرورة تعريب ما نحتاجه من الخارج بدل نسخه وتناوله سطحيا وبلا عمق .

وهناك الاكتشاف الكبير : اننا نحس اليوم ، في عمق ومرارة ، بشدة الصلة ما بين معركة العروبة مع اعدائها في الخارج ، ومعركتها الداخلية ، معركة حقوق الانسان العربي . وهنا ايضا يبرز دور المثقف وتبرز اهمية الثقافة .

ان مهام المثقف ومنظورات الثقافة خلال هذه المرحلة التاريخية ، الانتقالية والانشائية ، يختلف عنها خلال المراحل السابقة ، انها تفرض حضور المثقف ، مواجهته للحقائق من خلال معايشته العميقة للاحداث واختلاطه الواعي مع الاخرين ، مع الناس .

هذا لا يعني تدني الثقافة ، كما انه لا يعني طغيان التفكير السوقي والسطحي ، لكنه يفرض معاناة المثقف للمشاكل الحياتية ، الى جانب معاناته الايجابية للمشاكل الكونية الشاملة ، اذ لا يكفي المثقف تكرار ما وجده في المناهج الجامعية واستعادة ما قراه من مؤلفات الاقدمين او ترجمات المعاصرين ، هذا ضروري واساسي لارساء القواعد الفكرية وصقل الذهن الناقد ، لكن من واجب المثقف العربي استكمال ثقافته بالعودة للاحتكاك بالشعب، يعني بالحياة .

ان الثقافة الكبيرة ، مثل الادب الكبير ، تظل ثقافة الحياة . واذا كانت ثقافتنا العربية المعاصرة متخلفة وضيقة الآفاق فلأن حياتنا العربية المعاصرة ما زالت متخلفة وما زالت ضيقة الآفاق .

باريس

عدنان ابراهيم

انتظروا منشورات

دار المصراتي

مؤسسة ثقافية

للطباعة والنشر والتوزيع

طرابلس الغرب ـ ليبيا

شارع جدة المتفرع من شارع الاستقلال

رقم ١٠ ـ ص. ب ٢٥٠٠